البعد الأول
بين الكون والخالق

١ ــ مادية علمية ربانية

٢ ــ عظمة البناء المادى للكون

٣ ــ أصل الأصول لدى الفكر الإسلامى .

٤ ــ القرآن القائد إلى فهم أعماق الكون .

٥ ــ سقوط تأليه الطبيعة .

٦ ــ الباب الواسع .

مادية علمية ربانية

من أسلحتنا التى ينبغى أن نستعملها فى المعركة الفكرية المعاصرة أن نبين أننا نعتنق نفس المذهب العلمى المادى الذى تقوم عليه الحضارة العلمية الحالية ، والذى تفتتن به المادية الإلحادية الشرقية والغربية ، لأن ذلك المذهب هو الدعامة الكبرى لديننا ، ولأنه أستاذ عقولنا ، وباب معرفة ربنا ، ودليلنا الهادى الذى يسوقه القرآن أمامنا فى بحثنا عن الله وأسراره وصفاته وعن علاقتنا نحن البشر به وبالكون المادى .

فالعلم عندنا دين ، وماديتنا « ربانية » مؤسسة على الإيمان «بالكائن الأكبر» الذى خلق الكون ويَعْمُره ويُدِيره ، ويُدَبّره وينسق جزئياته وكلياته ، ويجعل القانون الذى يسيّر الذرة الصغيرة فى الأرض هو نفس القانون الذى يسير المَجَرّات الكبيرة فى السماء ذات ملايين الملايين من النجوم والأثقال والأبعاد والأسرار . . !

وماديتنا تجعلنا نقف على أساس ثابت مكين من الإيمان بالله والإيمان بالإنسان وقدرته على العلم والعمل لتسخير الطبيعة واختراق سدودها واقتحام أسوارها والحكم عليها حكمًا علميًّا مبنيًّا على المشاهدة والتجربة واليقين لا على أوهام الأمم وشطحات الشعوب وتهويماتها . . .

وربانيتنا تعقد بين النفس الفردية وذلك « الكائن الأكبر الخالق » أوثق الصلات من الرحمة والحب والصداقة والتجاوب والتفاهم ، فتملأ فراغها بالطمأنينة على مكانها فى الكون خلال الحياة الدنيا ، وعلى مصيرها فيه بعد الموت .

والصورة الفكرية لدينا عن « الكائن الخالق » صورة علمية مستمدة ألوانها وأصباغها من كلماته التى لا عدد لها فى الطبيعة ، إذ أن الطبيعة فى رأينا هى كتابه الصامت المكتوب بالأعمال والقوانين والبدائع ، وقرآننا هو كتابه الناطق المترجم عما فى ذلك الكتاب الصامت ، فلا يناقض ما فى الطبيعة ولا يكذبها . . . وليس فى العلم للآن حقيقة واحدة ثابتة تناقض ما ورد فى القرآن من نصوص فى خلق الكون والنفس والحياة . . . كما يقول : (قلْ أنزله الذى يَعلمُ السِّرَّ فى السموات

والأرض) ،(تنزيلًا مِمَّن خَلَقَ الأَرضَ والسموات العُلَا) . فمن أين يأتى التناقض ؟ ومن أين يأتى التفاوت ومنزل الكتاب هو خالق الطبيعة ؟ !

والقرآن لم يتحدث عن ذات الله وكنهه ، وإنما تحدث عنه بصفاته المستنبطة من صنعه فى الطبيعة ، تمامًا كأسلوب العلم المبنى على الحس والتجربة فى وصفه الأشياء والكائنات واستنباط قوانينها وخصائصها .

فالله هو الحقيقة الفكرية الكبرى الأولى التى يستنتجها العقل من الطبيعة ويرتاح بالوصول إليها من ألم الفراغ والشك والجحود والإنكار .

ويترتب على إنكار هذه الحقيقة مشكلات فكرية وهموم ذهنية عدة لا تقاس بها المشكلات التى يثيرها بعض العقول المنحرفة حول إثبات تلك الحقيقة .

أجل إن إنكار الخالق يثير مشكلات لا عدد لها ! ولا يستقيم المنطق بها ، وتشعر النفس مع الإنكار بألم الفراغ الهائل فى الكون ، والضياع بين جبروت القوى العمياء الصماء الخرساء فى الطبيعة ، وفقدان الأمل فى أى شىء ، وجهل المصير فى ظلمات الكون .

والذين يخالطون الماديين الملحدين يعلمون منهم أنهم يشعرون بذلك الفراغ القاتل ، وفقدان الآمال والمعانى المسعدة التى يجدها المؤمنون حتى ولو لم تحل عندهم « مشكلة العيش » التى استأثرت باهتمام الإلحاديين .

فحل مشكلة العيش فى هذه الدنيا ليس كل شىء فى حياة الإنسان ذى الفكر الطليق والقلب العميق والنظر المتوثب المتطلع إلى ما وراء حدود العيش فى هذه الحياة .

وإنى دائمًا أتصور ، فرضًا ، أننا جميعًا فرغنا من هموم العيش المادى ، ويسرت لنا وسائله من الطعام واللباس والسكن والمتاع والصحة والعلم والعمل والمال والبنين والحرية والكرامة والأمن إلى آخر وسائل الحياة المادية . . . فهل نكون بذلك قد فرغنا من كل مطالبنا ورغباتنا ؟ وآمالنا ، هل تتحقق بذلك طمأنينتنا وسعادتنا ومقاصد نفوسنا فى الحياة . ؟

أقول : لا . . .وأعتقد أننى أعبر بها عن الفكر البشرى ذى الأشواق والأخيلة والحريات غير النهائية . . . الفكر الذى لا يجد فى تحقيق كل الوسائل المادية

المذكورة سابقاً أية إجابة على سؤاله الخالد من أين ؟ وإلى أين ؟ ومن نحن ؟ وما هو هذا الكون الكبير ؟ ولمن ملكه وملكوت كل شيء فيه ؟ ومن وراءه ؟ وما مصيره ؟ ما هو مصير النفس ومصير العلم والقدرة والصحة والغنى فيه ؟ أهو قبض ريح ؟ أهو خيال حالم فلا حقيقة له ؟ أهو عبث لا حكمة وراءه ؟ أهو باطل لاحق فيه ؟ أنحن حيوانات تحيا بالجسد وحده ، وكل مطالبها هو الرعى والسوم والشهوة ، ثم تمضى إلى الفناء بدون غد ؟ ! أنحن البشر كأسراب الطير والسمك والذباب أو كقطعان البقر والغنم ، أو كأهراء الحبوب وهبوات الذرات والقش ، « مليارات » تأتى ثم تذهب ، ثم يأتى مثلها فى دورات أبدية لا نهائية ؟ إذاً فما هى الغايات من خلق هذا الكون الكبير الذى تعمره الحكمة البالغة ، وتتجلى فيه الصنعة الرائعة ، وتحكمه القوانين الدقيقة الصارمة ، وتسوقه وتنسقه عصا حازمة ، وتمسكه من الزوال يد قادرة قاهرة ، وتترقرق فيه رحمة واسعة غامرة ؟ ما سره الخفى ؟ ما نبؤه العظيم لدى الفكر العظيم والقلب الكبير ؟

ولا شك أن ما وراء هذا التساؤل هو القيمة الحقيقية للإنسان* ، والوضع الأصيل له فى الطبيعة ، وأنه ما دام يتطلع إلى الإجابة على هذا التساؤل فلن تغنيه الوسائل المادية ولا حل مشكلة العيش هنا وحدها ، لأن مطلبه الحقيقى هو الطمأنينة على وضع هذا الكون العظيم وفهم غاياته ، وعلى وضعه هو ومصيره فيه . وإن فراغه من البحث عن وسائل عيشه المادى بعد تيسره له جدير أن يحمله على زيادة التساؤل عن هذا المطلب الأسمى الذى دوّخ فكره وشغل قلبه وأنتج أحسن ما عنده ، وهو الدين والفن والعلم .

وقد كان كدحه لتوفير وسائل عيشه المادى هو الذى عوق جهده وعطل سيره عن مطلبه الأسمى ونبئه العظيم وسره الكبير الذى ما خلق إلا من أجله .

وعلى هذا ، فالذى يجب أن يعنينا فى هذا المقام من المادية الإلحادية التى يقوم عليها بعض المذاهب المعاصرة من الناحية الفلسفية هو إنكارها وجود الخالق ، لأن حل « مشكلة الفكر والاعتقاد » ينبغى أن يكون أهم من حل « مشكلة العيش » إذ أن الأولى تتعلق بها قيم الإنسانية وحياتها الدنيوية والأبدية التى تشعر أنها خلقت

(*) انظر (أومن بالإنسان) للمؤلف .

لها ، والتى تبعد بها عن أفق السوائم والحيوانات التى لا يهمها إلا تأمين الحاجات الموقوتة المحدودة ، غافلة عن حاجات النفس الإنسانية وأشواقها العليا وبحثها عن الطمأنينة على مصيرها فى الكون وعلاقتها بخالقه الأكبر وسره الأعظم ، وخاصة بعد أن تبين للإنسان أنه عامل عظيم من عوامل التكوين والتخريب والانطلاق بين أجواز الفضاء الكونى ، لا فى الأرض وحدها .

فليؤمن الناس بالخالق الواحد على الصورة العلمية أو القرآنية ، ليحلوا بذلك الإيمان « مشكلة الفكر والاعتقاد » ثم ليذهبوا فى حل مشكلة العيش فى الأرض وإقامة العدالة الاجتماعية بينهم أى مذهب يرتضونه ما داموا يختارونه بطرق بعيدة عن الإرهاب والإكراه والإهدار لقيم الحرية الإنسانية .

عظمة البناء المادى للكون

المادية المحمودة والمادية المذمومة — عظمة البناء المادى للكون — تحويل المادة إلى روح — المادة مكان لقاء أيدينا بيد الله — إلى اقتحام سور الوهم القديم أيها المسلمون — إلى نقطة البدء والانطلاق — المذهب المادى يجتاح التفكير الإنسانى — علامات على الطريق إلى الله .

أسارع فأجرد كلمة المادية من المعنى المذموم الذى وقر فى أذهان الناس وصارت له مدلولات منفرة وسمات مقبوحة فى مجالات الفكر والأخلاق . . والمعنى المذموم المقبوح فى المادية هو ألا يؤمن عقل الإنسان بوجود شىء وراء البناء المادى للكون . . أو أن يتهالك طبع الإنسان على حب الأشياء المادية واقتنائها والاستئثار بمنافعها تهالكاً ينسى فيه الواجب والشرف والمروءة والأخوة ، وتستبد به شهواته ونوازع نفسه ، وينسى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، إذا فاته شىء من متاع الأولى صار إلى عوض منه فى الثانية ، فيجب لذلك أن يكون صبوراً حَمُولاً عَيُوفاً لا يطمع ولا يجزع ولا يُسِفُّ ولا يذل الحرص عنقه .

أما المادية المحمودة فهى التى تحتفل بصنع الخالق فى البناء المادى للكون ، وتكشف عن أسرار ذلك البناء وقوانينه وقواه الآلية وتنتفع بتسخيرها وترى يد الخالق فيه ، وتعلم أن الأشياء المادية هى أبجديات الحقائق العقلية الممهدة لإدراك الحقائق الروحية والقيم العليا التى وراء المادة .

والمادية المحمودة كذلك هى التى إذا اقتنت الأموال جعلتها وسيلة لا غاية ، وأداة لتحقيق المعانى الكريمة والمحامد الخلقية ، وتشعر أنها مالكة للمال لا مملوكة له ، وأنه فى يدها وليس فى قلبها ، ولا تُهدر فى سبيل اقتنائه شرف النفس ومروءة الطبع وسماحة الخلق وحقوق الغير ، بل تؤثر وتقدم على نفسها ، ولا تستغرق الحس والإدراك وطاقة العمل فى المادة والتفكير فيها ، بل تجمع إلى ذلك تطلع النفس إلى المثل العليا واحتفالها بما وراء الطبيعة .

تلك هى المادية المحمودة التى يطلبها العقل والخلق الإسلاميان ، وهى أساس سعادة الكائن البشرى باتساقه مع منطق الكون ومنطق القرآن .

فينبغى ألا تكون المادة وعلاقاتنا بها شيئاً تافهاً لا يستحق الوقوف عنده بالفكر طويلا والتأمل فيه كثيراً كما يرى المتبرمون العازفون المتشائمون . . . وألا تكون هى الأمر الوحيد الذى نقف عنده غافلين عما وراءه من قيم ومثل يدركها العقل بأشواقه وتطلعه إلى الكمالات كما يفعل الماديون المغلقون المتكالبون .

ونُدير القول مرة ثانية لنؤكد أن الماديات هى أبجديات ومفردات وكلمات تكون تجاربنا الحسية وتنتج الحقائق العقلية التى لولاها ما أدركنا شيئاً من الحقائق الروحية والقيم العليا التى وراء المادة .

وينبغى أن تتحول المادة فى عقولنا وأذواقنا إلى روح شفيف . . . وذلك حين تتحول لدينا إلى أداة دهشة وعجب وتفكير وبذل وتضحية وعبادة دائمة . . . غير أنها تحتاج حينئذ إلى علم غزير وفقه كبير بأسرار الله فيها .

وعلى هذا ينبغى ألا يضيق بها المتدينون وألا يذموها ويروها أقفالا ومغاليق على بصائرهم فيحاولوا الانسلاخ من منطقها وسننها وقوانينها الصارمة بالأحلام والأوهام والشطحات ، لأن الأعاجيب التى أودعها الخالق فى البناء المادى للكون لا عدد لها ولا حصر ، وهى تفوق بكثير عدد الأعاجيب التى قد يلمحها بعض العقول فى عالم ما وراء المادة . ولا يفرغ العقل والقلب فى أية لحظة من لحظات وعيهما من شعاع يسقط على عدستهما من أى أفق من آفاق المادة ، فيثير انتباههما وعجبهما وعبادتهما .

وطبيعى أن الإسلام لا يرى رأى هؤلاء المتشائمين المتبرمين بالمادة ، بل يدعو كما بينا إلى الاحتفاء بها وتعمق أسرارها ودراسة ظواهرها وتسخير قواها فى النفع العام وإلى أن يرى الإنسان يد الله فى كل شىء منها ... وبذلك تتحول المادة كما قلنا أمام إدراك الإنسان وذوقه الوجدانى إلى روح شفيف وسر لطيف يطالعه فى كل لمحة عين وخطرة ذهن وخلجة حس ، بآية من آيات الله وكلمة من كلماته تشير إليه وتدل عليه وتوجه القلب والفكر واللسان إلى قدس أقداسه فتمتلىء بالشعر والعلم والتأمل والحكمة والتعبد !

ومن موجبات الأسف أن أكثر المسلمين المعاصرين ما يزالون يصدرون فى تفكيرهم الدينى عن عوامل ومؤثرات ليست من منطق القرآن ، وليست من وحى

طبيعة هذا البناء العلمي المادي للكون . . . ولذلك لم ينطلقوا — برغم طول العهد على اتصالهم بالثقافة العلمية المادية المعاصرة — من تلك الأوهام التي قيدت عقولهم ووقفت بها على مقاطع نظر للكون المادي غريبة عن منطق العلم ومنطق القرآن .

وما لم يتحرروا من هذه الأوهام وينظروا إلى الكون نظرتهم الأولى عند ما فتح القرآن عيونهم على آيات الله وكلماته المكتوبة في آفاق الطبيعة بآياته المقروءة غداة نزول القرآن ، وما لم يجعلوا عوامل يقظتهم واندفاعهم وقيادهم في نهضتهم الحديثة منطلقة من منطق العقل القرآني العلمي ، فإنهم سيظلون كما هم على بعد عن الموقف الصحيح في الجمع بين الدين والعلم ، ينظرون نظرة مصروفة عن رؤية حقيقة الكون المادي وحقيقة النواميس التي تسيره ، مقيدين بآراء النظار الذين أخذهم الجدل القديم الموروث عن الأمم الأخرى أيام عجز الإنسان وتصوره . . . أو مأخوذين بآراء النظار والفلاسفة المُحدثين الماديين الملحدين لجهلهم نقطة البدء والصدور في النظر القرآني .

فلندْعُ إلى اقتحام سور الوهم الذي حبس عقول المسلمين بعد عهد نزول القرآن وبعد اختلاطهم بالأمم وطغيان بعض فلسفات تلك الأمم على النظر القرآني الذي ينظر إلى البناء المادي للكون وإلى قيم ذلك البناء كما ينظر إلى القيم والمثل الغيبية التي بنى الله عليها ما وراء الطبيعة المادية .

ولا يظنن ظانٌّ أن الجهد الذي يبذل في هذا السبيل تَرَفٌ ذهني يدخل في أبواب الفلسفات النظرية الجدلية العقيم بعيداً عن العمليات والواقعيات التي هي شعار أكثر العقول والمذاهب والفلسفات في هذا العصر . . . كلا . . . فإن نقطة البدء والانطلاق في نهضات الأمم واندفاعات الشعوب الواعية هي مصدر قوتها ومقياس نجاحها ، لأنها فلسفة رأيها وعقدة عقيدتها وقوة دفعها التي تحشد عزمها وتجمع أفرادها وتَحكُمُ عواطفها من أن تشرد أو تتفرق أو تضل .

لذلك يحسن بل يجب أن تقف أمتنا وقوفاً طويلا عند نقطة البدء والانطلاق في حياتها العقلية ، لتقدم بين يدي ثورتها ونهضتها ونظمها وتشريعاتها السياسية والاجتماعية فلسفتها وعقيدتها التي تعمر رءوس أبنائها وتملك قلوبهم وتحكم آراءهم ونظرتهم إلى الكون والحياة . . . وبخاصة في عهود افتراق المذاهب وتشعب الآراء

وكثرة الدعايات فى أسواق الفكر والرأى للمذاهب المادية الإلحادية الآ تحبس نظر الإنسان على الآفاق المظلمة المطموسة المغلقة من البناء المادى للكون .

ولقد أخذ المذهب المادى فى العصور الأخيرة يجتاح التفكير الإنسانى اجتياحاً ترك آثاره الضخمة فى آفاق الفكر والاعتقاد والعمل والعيش ، وكان ذلك من نتائج الافتتان بآثار العلم بكثير من قوانين الطبيعة وطرق تسخير قواها واقتحام كثير من سدودها وقيودها ، واكتشاف كثير من مجهولاتها .

وقد نشأت من هذا الاجتياح المادى عقائد وآراء وسياسات سيطرت على المجتمعات البشرية بما لم تسيطر به من قبل ، فاستغرقت نزعات البشر وآمالهم ووجهت أعمالهم وحجبت نظرهم بغشاوتها عن كثير مما فى الكون من حقائق عقلية غير مادية وأذواق وجدانية تدركها الإنسانية فى جو التأمل فى العالم والإخلاد إلى النفس والخلوة بها والبحث فى طوايا ضميرها ، وفى جو الإيمان والتأويل لظواهر الكون والحياة .

وقد غلبت القيم المادية فى هذه العصور غيرها من القيم المعنوية وصارت هى الأساس للحكم فى أكثر المجالات ، يتهم الفرد بالقصور أو التخريف ، أو السذاجة إذا أغفلها أو أهدرها . وقد صارت مادية الكون ومادية العيش ومادية الأخلاق شغلا شاغلا لأكثر المجتمعات العصرية ورمت بأفكارهم المرامى البعيدة وصارت محور الصراع الأكبر فى ميادين العيش .

بل ربما كان هذا المذهب المادى هو مذهب أكثر الناس فى جميع العصور لا فى العصور الحديثة وحدها ، لأنه المذهب القريب إلى عقول الناس ، إذ كان تفكيرهم غالباً رهين الظواهر المادية ، وكان خلقهم رهين الضرورات المادية وثيق الصلة بها ، إذا رفع نبى أو فيلسوف نظرهم إلى عالم التجريد والمعانى والمثل والقيم لا يلبثون أن يعودوا بعد مضى عهد النبى مخلدين إلى الأرض بأهوائهم ونظرهم المحدود ونزوعهم للتجسيم حتى فى تصور آلهتهم ، فيمثلونها فى الحجارة والخشب نصباً وتماثيل وشخوصاً تلمسها أيديهم وتنظرها عيونهم التى لا تقوى على التحديق فى غير المتناهى .

طبيعة ثابتة وفطرة مسنونة وسبيل مطروقة من قديم ، ما كان للدين القيّم أن يُهدرها ولا يحسب حسابها فيما يوجهه إلى العقل من رسالات روعى فيها أنها

هدى للفطرة التى فطر الله الناس عليها فى جميع العصور ، وأنها لا بد أن تأخذ بقيادهم إلى التعرف إلى (الله الكائن الأكبر الخالق) بأيسر الوسائل وأهدى السبل .

وقد جعل القرآن لبينات البناء المادى للكون ومشاهدها وأسرارها وقوانينها صُوَّى وعلامات على طريق التعرف إلى الله الخالق ، وجعلها وسائل وأدوات لفهم ما عنده وعند الملأ الأعلى من عالم ما وراء المادة ، فتتدرج عقولنا على مستويات هذه الأبجديات وعلى إدراك النسب الكثيرة بين مفرداتها وكلماتها ، حتى إذا فرغت منها وامتلأت بعلومها وحذقت الصنعة فيها ورأت مواقع يد الخالق بها وتوقيعه على أشيائها ، وتتلمذت عليه فى تعلم ما يشاء أن يحيطوا بعلمه وفى تسخير ما يشاء أن يسخروه ويقدروا عليه من ملكوته . . . حينئذ كله ، لعل عقولنا تكون قد صلحت لإدراك ما وراء البناء المادى للكون ، ولإدراك علم عقلى عن السر الأكبر الذى يَعْمُرُ ما وراءَه !

أصل الأصول لدى الفكر الإسلامى

دلالات من ثبات سنن الكون — الكون صورة مختارة ومرآة عاكسة لصفات الخالق — المقام المحمود الأعظم للعقل — استقبال القرآن للعقل بترحاب — كرامة لا يأباها إلا سفيه — الكائنات العليا والنبأ العظيم .

يجدر بنا ونحن نجادل « المادية الإلحادية » الواقفة عند حدود البناء المادى للكون ، والقاصرة عن إدراك المدى الواسع الذى يطلق القرآن العقل إليه وراء حدود ذلك البناء المادى ، ليريه قيمته وقدرته الحقيقية التى لا تتقوقع داخل الحدود المادية الضيقة لعالم المادة ، بل تنطلق وراء تلك الحدود ، لا انطلاق التخيلات الكاذبة والشطحات والأوهام ، بل انطلاق الحكم المبنى على القياس المنطقى البعيد الدقيق الذى لا يخطئ .

أقول .: يجدر بنا فى هذا المقام أن نبين فكرة هى أصل الأصول فى العقل الدينى الإسلامى ، وهى أن الله الخالق فى تصور ذلك العقل هو المنشئ للكون من لا شىء . . . أى من العدم ، وأنه هو واضع السنن والقوانين الكونية المطردة التى لا تتبدل ولا تتحول ، على الأقل بالنسبة لنا نحن المخلوقين وبالنسبة لواقع الكون .

ولكن ذلك العقل الدينى يرى أيضًا أن الله مع أنه جعل هذه السنن والقوانين تطَّرد ولا تتبدل ولا تتحول إلا أنها لا سلطان لها على قدرته وإرادته ، فهو غير مقيد بتلك السنن والقوانين التى وضعها لسير الطبيعة ، ولا يعقل أنه لا يملك خرق تلك السنن والقوانين إذا أراد ؛ تمشيًا مع الإطلاق فى قوله تعالى :

(إنما قَوْلُنا لشىءٍ إذا أَردناه أَن نقول له كُنْ فيكونُ) وقوله : (وما نحن بمسبوقين على أن نُبدِّل أَمثالَكم ونُنْشِئَكم فيما لا تعلمون) .

و (فيما لا تعلمون) هذه جملة وراءها من التصور والفرض والخيال ما لا قبل للعقل أن يبلغ مداه !

غير أن للعقل الدينى أن يستنتج من ثبات سنن الكون وقوانينه ، ومن أقوال القرآن عن ذلك الثبات والدوام ؛ وعن أنها ما وضعت إلا بالحق والقسط . وعن أن الكون

فى اتساعه ورحابته الهائلة من الأوج إلى الحضيض ، يسير بنظام واحد فى الذرات الصغيرة والمجرات الكبيرة ؛ بمليارات نجومه وأفلاكه ؛ هو الجد الذى لا لهو فيه ، والحق وموازين القسط . . . أقول : إن للعقل الدينى أن يستنتج من ذلك الثبات والإصرار على اتجاه واحد يتجه إليه الكون بدون تحويل وتبديل ، أن الخالق اختار للكون أبدع سنن الحق والخير والجمال و أقامه على صورة الكمال الدائم الذى يرتضيه وأنَّهُ « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وأنه جعله على صورة عكست صفاته وأسماءه الحسنى التى صدر الكون عنها .

أجل ، يرجح العقل الدينى القرآنى أن الصورة الراهنة للكون هى الصورة المختارة الثابتة العاكسة لصفات الله وكماله واتجاه إرادته . قال القرآن :

« ما تَرَى فى خَلْق الرحمن من تفاوت، فارْجع البصرَ هل ترى من فُطُور . ثم ارْجع البصر كَرَّتين ينقلبْ إليك البَصرُ خاسِئًا وهو حَسِير) ، (وما خلَقْنا السماءَ والأَرض وما بينهما باطلًا ؛ ذلك ظنُّ الذين كفروا) ، (وما خَلقنا السمواتِ والأَرضَ وما بينهما لاعبين) ، (فماذا بَعْدَ الحق إلا الضلالُ) ، (الشمسُ والقمرُ بِحُسْبانٍ . والنجمُ والشَجرُ يسْجُدانِ . والسماءَ رَفَعَها وَوَضَع الميزان . . . والأَرضَ وَضَعها للأَنَام) ، (ثم استوَى إلى السماء وهى دُخَان فقال لها وللأَرضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَو كَرْهًا . قالتا أَتيْنا طائعين » ، (وأَوحَى فى كُلِّ سماءٍ أَمْرَها) ، (أَعطى كلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى) .

والعقل الدينى بكل طاقات التعجب التى فيه يحتفل حين يرى أى شىء فى أى أفق ، سواء أكانت أسباب وجود ذلك الشىء ظاهرة خاضعة للحس أم لم تكن .

وفرق كبير بين هذا العقل الذى يحيط هذه الإحاطة ، ويحكم هذه الأحكام ، ويتحرر من المنطق الحسى هذا التحرر ، ولا يتصور الإلـٰه إلا حر الإرادة والقدرة ، وأنه كان ولا شىء معه ، ويبقى ولا شىء معه ، فهو الأول وهو الآخر ؛ وأن الكون كله صادر عن إرادته . . . أقول : فرق كبير بين هذا العقل وبين العقل الواقف عند حدود البناء المادى ؛ القاصر عن تخطى تلك الحدود بالتفكير الحر الذى

يتناول الكون قبل بدئه وبعد انتهائه ويصاحبه مرحلة مرحلة ، ويأبى أن يتصوره أزليًّا وأن يتصوره أبديًّا ، بل يحكم بأن الأزلية والأبدية للخالق وحده والوجود الحقيقى له وحده ، (هو الأَوَّلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شىءٍ عليمٌ) .

وإنه لمقامٌ سامٍ غاية السمو أن يكرم القرآن العقل الإنسانى هذا التكريم ! فيجعله يرى الكون هذه الرؤية ؛ ويزْوِيه بين عينيه ؛ ويضعه بين يديه ؛ ويقيمه فيه مقام الشهادة العظمى مع شهادة الله الخالق والملأ الأعلى على الحقيقة الأساسية الكبرى التى قام بها بناء الوجود وصلاح العالم ؛ وهى وحدانية الله وقيامه على الوجود بالرعاية والرحمة والعدل (شَهِدَ اللهُ أَنَّه ، لا إله هو . والملائكةُ وأُولُو العلم ، قائمًا بالقِسْط) .

فماذا يطمح إليه الكائن الإنسانى أعظم من هذا المقام ؟ ! إنه فيما يبدو قد دخل الحياة بدون اختيار منه ولا إرادة ، ويخرج بدون اختيار منه كذلك ، ليس له من الأمر شىء ؛ وهو يرى بدء حياته من ماء مَهين ، وانتهاءها إلى حفرة ضيقة ؛ ويرى ضآلته بين أطباق السموات والأرض وسلطان القوى المادية ذات الهول والجبروت . . . ومع كل تلك الأسباب التى تشير إلى أنه فى ظاهر الأمر لا قيمة له ، يستقبله القرآن بترحاب وتكريم ؛ ويأخذ بيده ويزكيه ويوحى إليه ويهيب به : (إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة) (وعَلَّم آدَمَ الأَسماءَ كُلَّها) ، (وإذ قلنا للملائكة اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا) ، (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم ما فى الأَرضِ جميعًا) ، (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا مِنْه) ، (ولقد كرَّمْنا بَنى آدم) ، (يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنس إن اسْتَطعتم أن تَنْفُذوا من أقطارِ السمواتِ والأَرضِ فانفُذُوا ، لا تَنْفُذُونَ إلا بسُلطانٍ) ، (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ) ، (يا أَيتُها النفسُ المطمئنة ارجعى إلى ربك راضيةً مَرْضيةً فادخلى فى عبادى وادخلى جَنَّتى) .

هكذا يستقبل القرآن العقل البشرى بأنس وترحاب ويضع أمامه مفاتيح علوم الأرض والسماء ، ويشجعه على بحث كل شىء ورفع أستاره ومعرفة أسراره ؛ ويخوله امتلاكه وتصريفه وتسخيره ؛ ويذهب عنه الروع والخوف القديم من القوى

المادية الجبارة ، ويفتح له أبواب الطبيعة ويُرْكبه فيها طبقًا عن طبق فى أجواز الفضاء الكونى والفضاء النفسى !

فأية كرامة أعظم من هذه ؟ ! وأية نفس تأباها وترفض اليد التى تمتد بها إلا أن تكون قد سفهت نفسها وجانبت الرشد ، ورضيت بالضياع والوقوف موقف العجز والهوان على ذاتها وعلى العالم ؟ !

والذين يقفون عند الحدود المادية للكون ولا يرون بعقولهم من وراءه ، هم الذين يأبون هذه الكرامة والرشد ويرفضون تبوأ هذا المقام المحمود ؛ ويرضون لأنفسهم بالعجز وعدم التطلع إلى الكمال ، ويحجرون على عقولهم أن تنتفع بما فيها من طاقات تؤهلها أن تكون من موازين الحكم والرأى فى الكون ومن أدوات البحث عن النبأ العظيم والشأن الخطير الذى يعمره وينبث فيه ! ويحملونها على أن تعيش حياتها آلة صماء أو قوة عمياء كتلك الآلات والقوى المادية التى تقف هى عند حدودها ولا تتطلع إلى ما وراءها .

وهم مهما كشفوا واستخدموا من أسرار التكوين والتخريب والقدرة على التسخير واختزال الأبعاد ومواجهة عوامل الفناء ، ومهما صعدوا من أجواز الفضاء الكونى والكواكب ، أو نزلوا إلى أعماق الأرض والمحيطات ، فإنهم بموقفهم المتحجر الخائف الواقف عند حدود المادة ، قد برهنوا على أنهم ليسوا من الكائنات العليا ، بل من الأحياء الدنيا التى لا تعرف حق نفسها ولا حق الوجود ! بل تعيش بعقلية القطيع فى ذهول إلا عن الكلأ والسوم والرعى وعصا القهر التى تراها على رأسها . . . أما اليد التى أوجدتها وساقتها إلى ساحات رعيها وسعيها ، وخولتها ما هى فيه من حياة ومتاع ، وهى التى تحميها وتدفع عنها وتحاول أن ترفعها إلى مستوى الرشد والحكم والاختيار والكرامة وحرية التطلع إلى النبأ العظيم الذى ينبئ به هذا الكون . . . فهى لا تراها ولا تحاول أن تراها .

ومن هنا كان عماها عن رؤية اتساع الكون واتساع قدرة مالكه واكتشاف أعماقه ومدى طاقات عقل الإنسان وقدرته على رؤية ما وراء ذلك البناء المادى العظيم .

ومن العجيب أنه ترضى هذه العقول الواقفة عند حدود المادة لنفسها وحياتها

هذا الضيق والضنك بينما يناديها الكون بهواتفه التى لا عدد لها. ويدعوها القرآن بأنسه وترحيبه واحتفاله أن تنطلق وراء أشواقها الفطرية إلى المجهول الذى وراء حدود البناء المادى ، وأن تحاول التعرف إليه كشأنها ودأبها مع كل مجهول .

ولكن غمرات الحياة المادية اليومية أخذتها وألهتها وأذهلتها عما خلقت لمعرفته من النبأ العظيم الذى يعمر الكون العظيم ، وشغلتها بتزاويق التراب وقوانين الحياة فى التراب . . . كما يقول القرآن :

(ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعلمون. يَعْلَمُون ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدنيا وهم عَن الآخرَة هُمْ غَافلُون) .

القرآن القائد إلى فهم أعماق الكون

مواجهة حاضرة لمشكلات كل عصر – نجاح فذ فى إيجاد العقل المتكامل العصور المؤمنة – المادية الإلحادية تجهل نظرية الإسلام – زوال عقدة النقص بعد اكتشاف أنفسنا .

* * *

هل وراء أبعاد (المادية الإسلامية) التى يحددها القرآن ويرسمها ، مستقر آخر للعقل البشرى يستطيع أن يركن إليه ويرتكز عليه ؟

وهل وراء ما أخذنا القرآن إليه من أعماق الكون . عمق آخر يمكن أن نتعمق إليه ونستقر فيه ؟

وهل وراء ما أخذ به القرآنُ الفكرَ من مذاهب النظر فى الكون طريق آخر يمكن منه استيعاب مشاهد الطبيعة وإدراك ظواهرها وبواطنها ؟

إنه ليس هناك مذهب من مذاهب الفكر الخالص الصحيح يستطيع أن يأخذها إلى غير ما أخذنا إليه القرآن فى الطبيعة وما وراء الطبيعة .

إنه أحال إثبات قضايا ما وراء الطبيعة – الله وكمالاته والملأ الأعلى – إلى قوة الحكم العقلى ولم يخضعها للحس وما يستلزمه من نقص وقصور وضيق .

وإنه أحال قضايا الطبيعة ودراسة ظواهرها إلى قوة البداهة والحس . فلم يشرد من الطبيعة ولم ينكرها ولم يسلط عليها مقاييس التجريد ، ولم يختبر وجودها بغير الحواس .

وإنه اعترف بما وراء الطبيعة اعترافه بالطبيعة . وجعل المنطق الذى استفاده الإنسان من تجاربه فى الطبيعة هو أبجدية المنطق الذى يدرك به ما وراءها ، وجعل الإنسان يدرك وجود الله الخالق وكماله . من صفات الإبداع والإتقان التى وجدها فى الطبيعة . فلا انفصال بين المنطق المادى فى الكون كله وبين منطق العقل البشرى . فهناك معيار عقلى واحد بين الخالق والمخلوق .

وليس يستطيع العقل أكثر من هذا فى محاولة إدراك الوجود والحكم على ظواهره وبواطنه . . . ولن يفرض بينه وبين ما وراء الطبيعة هوة لا تعبر . . . فيعطل نفسه

عن إدراك صورة الوجود المطلق والكمال المطلق والدوام المطلق الذى لا يخضع لقانون الزوال .

وما دام منطق القرآن مستمدًّا هكذا من الوجود كله ، متسقًا مع الطبيعة وما وراءها ، ولم نجد فيه شذوذاً أو شروداً أو شطحًا عما تعودناه من إدراك فى حياتنا اليومية بالحس والعقل ، فمنطقنا إذاً هو منطق الكون كله ظاهره وباطنه ، وليس هناك بيننا وبين الله الخالق هوة لانستطيع عبورها ، ولن نكلف أنفسنا عناء التفكير فى منطق آخر يقعد بنا عن التعرف والتقرب والتعبد لله الخالق بناء على الزعم بوجود تلك الهوة .

إن منطق القرآن هذا منطق فاصل واضح فى وضع المؤمنين بما وراء المادة ووضع الواقفين عند حدودها ، وهو منطق يكشف النقص المعيب فى الفلسفات المادية الإلحادية الماضية والمعاصرة التى تزعم أنها وضعت العقل البشرى على مستقر ثابت ليس وراءه مستقر آخر .

ومن عجائب أمر القرآن أن يجد فيه المفكرون فى كل عصر ما يواجهون به مستحدثات الآراء التى تحاول حرمان العقل من مصادر اليقين والطمأنينة وموارد الحياة الفكرية الرشيدة فى رحاب الربانية والاعتزاز بالانتساب إليها ، والاستمداد من مواهب الله الخالق والأنس به وبالحياة معه ، ومعاملته بمنطق واحد هو المنطق الذى يقوم عليه بناء الوجود ، والإيمان بالمصير إليه وامتداد الحياة معه فيما بعد البعث على مدى الآباد ، والإيمان بعنايته واحتفائه بالإنسانية وتكريمها ، إذ أنه لم يلقها إلى الأرض ضائعة تسحقها أو تتخطفها قوى الطبيعة الجبارة ، ولم يتركها سدى بين المجهولات والصغارات ، تأخذها الحماقات والضلالات والشهوات وتصرفها عن طريقها الصحيح إلى المستقبل الذى تبدو تباشيره ومعالمه ، بل كان دائمًا على صلة بها برسالاته التى أوضحت معالم الطبيعة المادية واحتفلت بالعلم بها وأوسعت من نظر الإنسانية إلى الكون وبشرت بما وراء الطبيعة من عوالم الغيب الذى وراء الحواس . مما يليق باتساع الكون واتساع قدرة خالقه ومالكه وارتباط الجميع به .

وقد نجح الإسلام نجاحًا منقطع النظير فى إيجاد العقل المتكامل الذى جمع بين الإيمان بمادية الطبيعة وقيمها ، والإيمان بما وراء الطبيعة والقيم التى تليق به ! حتى إننا لم نجد من فلاسفة الإسلام القدامى من يجنح به تفكيره إلى الخروج عن طريق

هذا الإيمان المزدوج بالمادة وبما وراءها وبالعناية الإلهية التى تسيطر على « عالم الخلق » و « عالم الأمر » .

فالكِنْدى وابن سينا والفارابى وابن رشد والبَيْرونى وغيرهم من فلاسفة الإسلام العقليين المشارقة والمغاربة ، كلهم إن لم يكونوا من بناة الإسلام عن طريق العقل فلم يكونوا من محاولى هدمه . . . وقد اكتملت فيهم صورة الحلقة المفقودة ذات العقل الإنسانى المنشود الذى يؤمن بالدين علماً وبالعلم ديناً . . . وتلتقى فيه كفايات العقل الثلاث : التأمل والإثبات والاعتقاد .

وتعليل وجود ذلك النوع من العقل المتكامل، هو أن فلاسفة المسلمين كانت فى أذهانهم الصورة الكاملة للكون بماديته وما وراءها ، وقد وضعها القرآن فى أذهانهم بأسلوبه العلمى الاستقرائى أو الاستنباطى البالغ ، وجعلهم على فطرتهم التى تستجيب أول ما تستجيب للجانب المادى فى الكون وأعاجيبه وقيمه ، ثم تنتقل من هذا الجانب إلى الاستدلال به على وجود الخالق المنشئ وعلى علمه وقدرته وسائر صفاته التى تستنبط من الطبيعة .

وقد أباح القرآن للمسلمين العمل فى الطبيعة والتتلمذ على مشاهدها وعلومها وقوانينها ؛ بل أوجب عليهم ذلك ؛ ولم يغلق أى باب من أبواب الطبيعة دون جهودهم العلمية والعملية . بل جعل خصوصية الإنسان التى يتفرد بها عن غيره من المخلوقات هى النبش والبحث فى كل شىء واستخراج أسراره وتسميته وتسجيله فى عالم البيان والتعبير . . .

فكيف يجد هؤلاء الفلاسفة الإسلاميون فى عقولهم وأنفسهم حرجاً من منطق القرآن يجعلهم يخرجون عليه أو يشردون منه ؟ !

إنهم أيقنوا أن القرآن لو لم يكن ديناً موحى به من عالم الغيب لكان المذهب العقلى الوحيد الذى يفر إليه الفكر ويأنس به ويحتمى فيه من وطأة الفراغ والشك والإنكار والحرج والضيق .

وقد حوّلوا الفلسفة والمنطق اليونانيين إلى أدوات استخدموها فى بناء الفكر الإسلامى ، فنشأ علم الكلام والجدل عن مَقُولات الإسلام .

ولذلك مضى أكثر عصور المسلمين وأعظمها حضارة ومدنية وثقافة ، وهو مؤمنة تظلها الربانية وتخدمها المادية ، ولا يجد أهلها ما يجده أهل عصرنا هذا من

« مشكلات الفكر والاعتقاد » « ومشكلات العيش » ، تلك المشكلات التى تبلغ ذروتها من التعقيد والإظلام العنيف فى « المادية الإلحادية » الشرقية والغربية ؛ تلك المادية التى لا تؤمن « بالثنائية » فى الوجود بين عالم المادة وعالم ما وراءها ، ولا تؤمن بقيم سوى قوانين القوى المادية العمياء ، ولا يرتبط ضميرها وعقلها بوجود أى كائن منفصل عن الطبيعة ، يأسًا وإفلاسًا من أصحاب تلك النظرية من التوفيق بين العقل العلمى المادى وبين ما درسته من أديان لم يكن من بينها الإسلام الذى يعتمد فى إثبات وجود « الكائن الأكبر الخالق » على أسلوب العقل العلمى ذاته الذى أدرك القوانين والأسرار التى تحكم البناء المادى للكون ولا تدرك بالحواس ؛ وإنما تدرك بالحكم العقلى ، كالرياضيات والقضايا التجريدية والعلاقات والنسب بين الأشياء التى من شأنها ألا تتجسد أو تخضع للإدراك الحسى .

ولو أن النظرية الإسلامية فى الطبيعة وما وراءها ، ولو أن طريقتها العلمية المبنية على الحكم العقلى الجازم فى التوصل إلى إثبات وجود خالق الطبيعة والاعتقاد به استنتاجًا من صنعه فى الطبيعة . . . لو أن هذا كان معلوماً ، لواضعى المادية الإلحادية ، لغيروا من نظرتهم للدين ، ولوجدوا أن لا ضرورة لتخريب قيم حياة التدين وشجبها والإزراء بها ، باعتبارها فى رأيهم مهدرة للعقل العلمى ومناقضة له ومخدرة للشعوب عن الكفاح لتحقيق « مطالب عيشها » فى الدنيا وحل مشكلاته ، وصارفة لجهد الجماعات عن السعى لنيل حقوقها فى سعادة الأرض قبل سعيها لنيل سعادة السماء .

ولكن مع الأسف الشديد ، لا تزال النظرية الإسلامية مجهولة لدى المدارس الفكرية المعاصرة بل لدى أكثر المشتغلين بالفلسفة من المسلمين ، امتداداً لموجة الإهمال الشامل لكل ما هو إسلامى فى عصور الاحتلال والانحطاط والتبعية السياسية والعقلية للمحتلين والافتتان بهم .

والمأمول أن ينحسر مد هذه الموجة ، بعد أن زال كابوس الاحتلال أو كاد . . . وبعد أن اكتشفنا أنفسنا ووجودنا وزالت عنا عقدة الشعور الكاذب بالنقص والتخلف ، ودخلنا النوادى العالمية فى السياسة والعلم والفلسفة ، وأدركنا دورنا التقليدى فى تحطيم حدة موجات التطرف والانحراف ومزجها جميعاً لإنتاج المذهب الوسط الذى تمتاز به أمة الوسط .

سقوط تأليه الطبيعة

جدل جديد حول قضايا الكون والألوهة — مدخل إلى تفسير النبأ العظيم —
سقط تأليه الطبيعة — من يلقى بأسرار الطبيعة إلى العقل ؟ — العقل
الإنسانى تفسير للعقل الأكبر — القرآن منطق الخالق والمخلوق — ما وراء
الصعود إلى ذرى المادة والهبوط لأعماقها فى وقت واحد ؟ — القرآن وما ربط !

يجدر بالعقل الإنسانى فى هذا العصر ، عصر الانطلاقات المادية الكبرى من إسار العجز والقصور القديم ، بعد أن وصلت يد الإنسان إلى مفاتيح القوى والطاقات الجبارة الكامنة فى وحدة البناء والتركيب المادى للكون — الذرة — وبعد أن استخدم تلك القوى والطاقات فى تحقيق تطلعه الدائم إلى الانطلاق من الأرض والصعود إلى السماء والرحلة بالجسم إلى الكواكب يسبر أغوارها ويكشف أسرارها كما سبر وكشف أغوار الأرض . . . أقول : يجدر به أن يغير من نظرته القديمة إلى الكون المادى والعلاقة بينه وبين الله الخالق وأن ينظر لذلك من خلال نظرته الجديدة إلى نفسه وعلاقته هو بهذا الكون المادى ، وأن يغير من منطقه فى الجدال عن قضايا الكون والألوهة والحياة ، بعد أن اتضح للعقل أن علاقته بالكون هى علاقة التفسير والتأويل لشئون الكائن الأكبر وصفاته ، وذلك بناء على دلالات منطق هذه القدرة الجديدة التى وجدها فى نفسه ، ووجد الكون المادى يستجيب لها ويطاوعها .

ويجب أن يكون واضحاً للعقل أن عمله الجديد فى التكوين والتحطيم وفى التحرك إلى كل اتجاه ، وفى الحرية والاختيار والإرادة التى يرى أنه يتمتع بها وحده دون غيره من المخلوقات ، هو المدخل إلى منطق جديد عصرى لتفسير النبأ العظيم لهذا الكون العظيم !

فكل شأن من الشئون التى أثبتها للخالق المنطق التجريدى القديم والفلسفة النظرية والحكم العقلى وعلوم الكلام والجدل عن مقولات الدين فى الألوهة وعلاقة

الكون بها ، قد وجد الآن تفسيره فى عمل الإنسان بعد أن اتسع علمه وقدرته وزال عنه عجزه وقصوره عن إدراك أسرار التكوين المادى واستخدام القوى والطاقات .

فالقضية الأولى فى الدين والفلسفة ، وهى قضية وجود الخالق ، قد ثبت بالدليل المادى لدى العقل أنها ضرورة حتمية للنظم والقوانين الكثيرة المعقدة المتوازنة التى تحكم البناء المادى للكون ، والتى لا يصح بالبداهة أن تكون قد أوجدت نفسها وأوجدت التوافق والتناسق وعدم التضارب فيما بينها ، حتى نتج عنها هذا الكون المادى الهائل العجيب ، لأنها كما ثبت لنا بالمشاهدة الحسية فى الأوج والحضيض مسيرة فاقدةللحرية والإدراك والاختيار عاجزة خاضعة ، قد خضعت لنا نحن العاجزين بذواتنا القادرين عليها بالعلم . وخضوعها لنا ولو جزئيًّا يثبت أنها مألوهة مخلوقة ، فلا يجوز أن تكون لها صفات الدوام والكمال المطلق التى لا يستريح العقل ويقتنع إلا إذا وجدها فى تصوره لصفات الخالق ، وإلا إذا شعر أنها نطاق وحد فاصل بين الخالق والمخلوق ، بين من هو وراء الطبيعة بكمالاته المطلقة التى لا يرضى العقل بأن تتناهى ، وبين الطبيعة بعجزها ونقصها وقيودها وخضوعها لعوامل الزوال ولقدرة الإنسان المخلوق بعد أن صار يغزوها ويخضعها ويسخرها ويركبها طبقًا عن طبق . . . فكيف يتخذها إلها يتعبدله ويخشاه ويدعوه مع أنه يسخره ولا يجد فيه ذلك الكمال المطلق والعلم والحرية والإراده ؟ !

إذن فقد سقطت فكرة تأليه الطبيعة ، حتى ولو أن الإنسان ما يزال ضعيفًا ضئيلا بين أحجامها وثوراتها ، بعد أن سقطت أقنعة الرهبة التى كانت على وجوهها فى عصور جهل الإنسان وعجزه . . . أسقطها علم العقل بالأسرار الكامنة فى تكوينها وتحطيم خرافة تأليهها كلها أو بعضها أمام عابديها وراهبيها من بقايا الوثنيين ، ولم يعد الناس فى جملتهم يجدون فى أنفسهم رهبة العبادة لأى شىء مادى فى الأرض أو فى السماء ، فلا الشمس ولا القمر ولا ملايين النجوم والكواكب بما تزخر به أفلاكها من قوى صاعقة ، وبما يَمُور به عُبَابها من أمواج وطاقات وانفجارات . . . لا شىء من كل أولئك صار يستطيع أن يحرك فى العقل البشرى قدر شعرة من رهبة العبادة والاعتقاد فى هذه القوى والكائنات .

ثم ، مَنْ الذى ألقى بأسرار الطبيعة إلى العقل الإنسانى وحده ؟ ومن الذى مكن له وحده أن يبلغ هذا المبلغ العظيم من تسخير قواها واستخدامها ؟ ولماذا يبلغ وحده هذا المقام المرموق ؟

لماذا كان وحده هو محل الدفع إلى قمة التطور الحيوى ، والمظهر الوحيد للحركة الحية الحرة الإرادية النامية دون سائر ما فى الطبيعة ؟ أليس هنا قصد إلى غاية كونية وراء هذا التفرد ؟ وما دلالة هذا القصد الثابت إلى دفع الإنسان إلى الأمام دائمًا ؟ ألا تكون دلالة هذا القصد الثابت من اختيار الإنسان وحده لهذه المهمة هى أن عمل الإنسان فى الطبيعة — كما سبقت الإشارة — ما هو إلا تفسير وتقريب يتجدد لصفات (الكائن الخالق الأكمل) ولمعانى قصده وغايته فى الطبيعة ؟ أليس الإنسان بهذا مرآة عاكسة مقربة مجهرة لصفات الكائن الأكمل الذى يحكم العقل ويوقن بوجوده ، ويكاد أن يصيبه الجنون إذا اتبع منطق الإنكار والجحود والإلحاد فى وجوده وفى قصده الثابت الحكيم الواضح وراء كل شىء ووراء ثبات السنن والنظم والقوانين الطبيعية ؟ !

أجل لا وجود للعقل الإنسانى ولا تفسير للكون وللنبأ العظيم الذى يَنْبَثُّ فيه إذا أخلينا البناء المادى للكون من العقل الأكبر الذى يدبره ويحكمه ويجعل سننه بهذا الثبات والإحكام والدوام ! ولكن العقل الإنسانى موجود بحكم الشئون العليا من حياة الإنسان ، وقد صار يدرك علوم الطبيعة وأسرارها وقوانينها ويستخدمها ويسخر كثيراً من قواها وطاقاتها ويتصف بالعلم والحكمة والبصر والسمع والإرادة والقدرة والبيان ، وهو الضئيل الضعيف العاجز بذاته كما يقول القرآن :

(هل أتَى على الإنسان حِينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا ! إنّا خلقْنا الإنسانَ من نُطْفةٍ أمْشَاجٍ نَبتليه فجعلْناه سميعًا بصيرا) ، (الرحمنُ عَلَّمَ القرآنَ ، خلَق الإنسانَ علَّمَه البيانَ ، الشمسُ والقمرُ بِحُسْبانٍ ، والنجمُ والشجرُ يسجدانِ . والسماءَ رفَعَها وَوَضَع الميزان أن لا تَطْغوا فى الميزان . وأقيموا الوزنَ بالقسط ولا تُخْسِروا الميزان ، والأرضَ وَضَعها للأنام) .

ولا يستطيع أى منكر أن ينكر وجود عقله هو الذى يجادل به ويرتب على الأقل

منطقه الذى ينكر به وجود الخالق ، فكيف ينكر وجود العقل الأكبر الذى رتب هذا الكون ووضع سننه وقوانينه وأصر على ثباتها لتنتج النتائج المادية الثابتة الحكيمة المتناسقة غير المتعارضة التى نراها فى السماء وفى الأرض ؟ !

إذن فقد ثبت أن العقل الإنسانى ، باختياره أو برغمه ، ما هو إلا تفسير للعقل الأكبر الذى أراد الكون وخلقه وحكمه ودبره وقام عليه بالقسط . . . ما هو إلا تفسير مادى قريب واضح الدلالة على وجود الخالق ، مقرب وموضح لصفاته التى يتحدث عنها الكون المادى والقرآن .

(فَوَرَبِّ السماء والأرض إنه لحَقٌّ مِثْلَما أنَّكم تنطقون) . فوجود الله وحياته وإرادته وعلمه وقدرته يفسرها ويثبتها وجود العقل الإنسانى وحياته وعلمه وقدرته ومنطقه .

وقيمة القرآن تتضح فى إثبات أن منطق العقل الأكبر الذى يحكم الكون هو منطق الكون كله ومنطق العقل الإنسانى ، وفى إثبات أن موازين الحق والباطل والخير والشر فى الضمير البشرى هى نفسها لدى الخالق ولدى الكون كله . . . ولا يخفى ما فى ذلك من دلالة على التناسق ووحدة الاتجاه والمقاييس فى الكون كله . وما فيه من هداية إلى أن يجد العقل الإنسانى نفسه ويحترم وجودَه ويقيم حياته وموازينه على الحق الذى يقيم جنبات الكون . . . وفى هذا مالا بد منه من طمأنينة النفس وشعورها بالسعادة الغامرة حين تجد نفسها وقد صارت وحدة من وحدات الميزان الأكبر الذى يوازن جنبات الكون ، ومحوراً من محاور الحق ، ومرآة لأشعة نور الله الساطع بالرحمة والعلم والحب والسلام والكمال !

وكل هذا يحمل العقل على الإخلاص لنفسه والاحترام لقوانينه — التأمل والتعليل والتمييز والحكم — ولقوانين الكون ، بعد أن صار يلقى إليه بما فيه من أسرار التكوين والتسخير والتصريف ، مما يدل على أن العقل الأكبر الذى يحكم الكون آذِنٌ بإلقاء هذه الأسرار إلى العقل الإنسانى ، راض بما صار يفعله من استخدام تلك الأسرار فى التسخير والتكوين والمحاكاة والانطلاق إلى الفضاء الكونى .

وهذا الانطلاق من إسار الأرض ، والصعود إلى الأوج والدوران فى أفلاك السماء ، وهذا الهبوط إلى أعماق الحضيض فى فلك الذرة فى وقت واحد ، يشير إلى

أن وراء إلقاء هذه الأسرار إلينا قصداً وتوقيتاً وهدفاً هو فيما يبدو تفسير النبأ العظيم لهذا الكون العظيم عن طريق عقل الإنسان وعمله بعد تفسيره عن طريق القرآن .

وقد تفرد القرآن بأنه حديث مباشر إلى الإنسان من الله الخالق عن ذاته العليا وصفاته وغاياته ومَلَئِه الأعلى، وعن الكون المادى وما فيه من أسرار ومشاهد وعن النفس البشرية ووضعها فى الكون وصلتها بما وراءه وعملها فيه ومصيرها معه .

وقد قام الدليل التاريخى والدليل العملى والدليل العلمى على أن القرآن حديث عظيم صحيح معجز متفرد إلى العقل الإنسانى عن الطبيعة وخالقها وعن مصيرها ومصير الإنسان معها . . . وقد كان نزول الوحى بالقرآن على قلب رجل من البشر أمراً لازماً لا بد منه للربط بين الطبيعة وما وراءها ، لكى يحصل العقل الإنسانى فى عهد رشده على اليقين حتى بالمشاهدة الحسية لما وراء الطبيعة وعلى معاناة هذه التجربة بكل قوى الوعى والإدراك والوجدان ، بعد حصوله سابقاً على الحكم العقلى التجريدى بوجود ذلك العالم الأعلى .

ولننظر فى مفتتح سورة (النجم) إلى مثل من ذلك الربط بين المشاهد الكونية المادية واليقين الحسى بها فى رؤية (النجم إذا هوى) بالعين الباصرة، وبين الرؤية الحسية بها كذلك لمصدر الوحى بالقرآن وللملأ الأعلى فى قول القرآن :

(ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى . . . ما زاغ البصرُ وما طغى . . لقد رأى من آيات ربِّه الكبرى) .

إذن هو كون واحد ، لخالق واحد ، بمنطق واحد ، وميزان واحد ، ورقابة واحدة كما يقول القرآن فى بيان مدى سلطان الله وعلمه بالإنسان وشئونه والكون وشئونه :

(وما تكونُ فى شأنٍ وما تَتْلُو منه من قرآنٍ ولا تعملونَ من عمل إلا كنا عليكم شُهوداً إذ تُفِيضون فيه ، وما يَعْزُبُ عن ربِّك من مِثْقال ذَرَّةٍ فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتابٍ مبين) ، (وهو الذى فى السماء إلَهٌ وفى الأرض إلَهٌ وهو الحكيم العليم) .

ولهذا الوضع المتفرد للقرآن أثره البالغ فى الربط الدائم بين العقل الإنسانى وبين كتاب الله الصامت وهو الكون المادى وما وراءه ، إذ أن القرآن قد أثبت حقائق

الكون المادى وأقام عليها حقائق ما وراءه من وجود الخالق وصفاته وكمالاته ، ومن ترتيب المسئولية والجزاء للنفس الإنسانية إزاء الحق والباطل والخير والشر حسب المقاييس الثابتة والموازين التى قام بها بناء الكون وتكوين العقل والضمير ، ومن استمرار الحياة وتفتحها وتجددها وخلودها فى دار الجزاء مع تجدد الكون ودوام الخالق .

الباب الواسع

من المقرر المعروف فى الإسلام أن باب رب الطبيعة واسع ، والدخول منه غاية فى اليسر والسهولة ، فلا مراسم ولا وسطاء ولا شفاعات ، ولا أحساب ولا أنساب ، لأن الله أقرب إلى الإنسان من نفسه وأرحم به من أهله وفكره وقلبه :

(واعلموا أَن اللهَ يَحُولُ بين المرءِ وقلبه) ، (ونحن أَقربُ إليه من حبل الوَريد) .

و « جواز » الدخول من هذا الباب شيء واحد هو الاعتراف بوحدانية ذلك الرب !

وهذا أمر طبيعى ، فى المنطق الإنسانى لدى كل الدول ، إذ تهدر كل دولة قيمة أى فرد لا يعترف بنظامها الأساسى أو برئيسها :

(إن الله لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلك لِمَنْ يَشاءُ) ، (ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فكأَنما خَرَّ مِنَ السماءِ فتَخْطَفُهُ الطيرُ أَو تَهْوِى به الريحُ فى مكانٍ سَحِيقٍ) .

إهدار بإهدار ! من يهدر قيمة حكومة الكون الكبير تهدر قيمته وتسلمه للضياع ، ولو أتى بملء الأرض والسماء ذكاء ونفعًا دنيويًّا . . . كما تهدر كل حكومة قيم الخارجين عليها بالغين ما بلغوا علمًا ونفعًا :

(وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا من عَملٍ فجعلْناه هَباءً منثورًا) (والذين كفروا أَعمالُهم كسرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَه لم يَجِدْه شيئاً) مثل الذين كفروا بربهم أَعمالُهم كرمادٍ اشتدت به الريُح فى يومٍ عاصفٍ لا يَقْدِرُون مما كَسَبُوا على شيءٍ) .

فإذا دخلنا من هذا الباب الواسع ، بجواز المرور ، إلى رحاب الله سيد الكون ، كان علينا أن نتبع آداب هذا الرحاب وتقاليده ونظام الحياة فيه ، فنوجه وجوهنا وضمائرنا إلى سيده لنتعرف إليه ونسير على سننه التى بثها فى ذلك

الرحاب ، ولا نخرب أى شيء فيه إلا بإذنه وتوجيهه ، وأن نعمل على نماء ما فيه من قوى الخير والنفع والجمال والصلاح لذلك الرحاب وأهله .

وليس فى ذلك الرحاب امتياز لأحد على أحد إلا بتلك الصفة الجامعة لكل معانى الحق والخير والجمال ، وهى (التقوى) ، وليس هناك احتكار من أحد لفضل الله ، لأنه إله الجميع ، وميزان حسابهم لديه واحد .

(وقالت اليهودُ والنصارَى نحن أبناءُ الله وأحباؤه . قل فَلِمَ يُعذِّبُكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشرٌ ممن خَلَق) ، (ليس بأمانيِّكم ولا أمانىِّ أهلِ الكتاب ، مَن يعملْ سُوءًا يُجْزَ به ولا يجدْ له من دونِ اللهِ وليًّا ولا نصيرا) ، (وقالوا لن يدخلَ الجنةَ إلا من كان هُودًا أو نصارَى ، تلك أمانيُّهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلىٰ من أسلمَ وجهَه لِلهِ وهو محسن فله أجرُه عند ربِّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون) ، (إن الذين آمنوا والذين هَادُوا والنصارَى والصابئين من آمنَ بالله واليومِ الآخِرِ وعَمِل صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

وفى هذا الرحاب الواسع سلام نفسى وسعادة غامرة ، لأن الأخوة فى ظلاله شاملة بين جميع المؤمنين ، وليس فيه شعب مختار ، وشعب غير مختار ، ولا نظر فيه للألوان والدماء واللغات ، وإنما هناك أخوة عامة ومساواة عامة وعدالة عامة :

(يا أيها الناس إنَّا خَلَقْنَاكُمْ من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شُعوبًا وقبائلَ لتَعَارَفُوا . . إن أكْرَمَكُم عند الله أتقاكم) ، (فإذا نُفِخ فى الصُّور فلا أنْسَابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتَسَاءلون) .

وهذا الباب الواسع دخل منه المؤمنون بالله الواحد ، المسلمون وجوههم إليه من جميع الأجناس فى جميع العصور ، ويدخل منه المؤمنون المسلمون فى الحاضر والمستقبل ، لا يضيق بأحد ، والداخلون إليه طابعهم واحد واسمهم واحد :

(إن الدين عند الله الإسلامُ) ، (مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ هو سمَّاكُمُ

المسلمين من قبلُ ، وفى هذا) ، ويقول القرآن عن قرية قوم لوط : (فما وجَدْنَا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين) ومن قبل قال نوح : (وأُمِرْتُ أن أكونَ من المسلمين) ، ويقول موسى : (سُبْحَانَك تُبْتُ إليك وأنا أولُ المسلمين) ، ويقول حَوَارِيُّو عيسى : (واشهَدْ بأنَّا مسلمون) .

إذاً فالرسالة واحدة خالدة على مدى العصور، وطابعها واحد، ومتبعوها أمة واحدة وإن اختلفت لغاتهم وألوانهم وأمكنتهم وأزمنتهم (ما يقالُ لك إلا ما قد قيلَ للرُّسل من قَبْلك) ، (قل ما كنتُ بِدْعًا من الرسل) ، (شَرعَ لكم من الدِّين ما وصَّى به نُوحًا والذى أَوحيْنا إليك ، وما وصينَا به إبراهيمَ وموسَى وعيسَى ، أن أقيموا الدينَ ولا تتفرقُوا فيه ، كَبُر على المشركين ما تَدْعُوهم إليه) .

فأية عالمية وأية إنسانية بعد هذه ! وأى لقاء للبشرية كلها أعظم من لقاء هذا الرحاب ! وأى علاج أنجع من هذا اللقاء لصراع الأجناس والمذاهب والألوان وحرب الطبقات الذى ملأ الأرض شقاء وأحال الحياة من نعمة إلى مأساة !

وأية «أخوة فى السلاح» أقوى من الأخوة فى سلاح الإيمان، لمقاومة أدوات الشقاء والدمار بالمحبة والطمأنينة والسعادة النفسية ، والتلاقى والتعاون على صراع قوى الشر والعدوان والإلحاد والانحلال وعلى كشف قوى الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان وغزو المجهول !

وأية عدالة أكثر ضمانًا للعدو والصديق من عدالة تقول (كُونُوا قَوَّامِين بالقسْطِ شُهَداءَ لله ولو على أنْفسِكم أو الوالِدَيْن والأَقربِين) ، وتقول : (ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآنُ قوم على ألا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هو أقربُ للتقوى) .

ألا ما أوضح وأعمق النداء القرآنى فى هذا الرحاب الإلهى الواسع !

(يا أيها الرسلُ كلوا من الطيباتِ واعملُوا صالحًا إنِّى بما تعملون عليم. وإن هذه أُمتُكم أُمةً واحدةً وأَنا رَبُّكم فاتقونِ) .

* * *

«وبعد» فإننا لا نعرض الإسلام فى هذا المجال معتزين به تدينا وتعبداً

بدون تفكير واقتناع عقلى ، والتماساً للثواب أو خوفاً من العقاب . . . وإنما نفعل ذلك لأننا وجدنا فيه بكامل عقولنا وثقافتنا الدواء الناجع لكل ما تعانيه الإنسانية من أمراض وأخطاء ومشكلات ، ولأنه كما قلنا مراراً ، لو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلى الوحيد الموصل إلى الأهداف التى يطلبها الإنسان المعاصر فى أزمته الخانقة لعقله وضميره ومنافذ عيشه ! !

وأخرى مهمة جداً للغاية ! هى أننا نعتز بالإسلام ونبذل الجهد فى عرضه على الإنسانية المعاصرة ، لأننا ندرك ما فيه وحده من الضمانات لحرياتها وحقوقها ، ولحمايتها من غضبات التعصب وضيق الأفق ! إذ لو لم يحل الإسلام بين المسلمين فى عهود قوتهم وفتح جيوشهم أرجاء الأرض فى الماضى وبين المخالفين لهم ، ما بقى على وجه أرض الإسلام غير مسلم ! وبقاء الأقليات الدينية الآن فى أرض الإسلام أكبر شاهد فى هذه القضية ، وزوال المسلمين من أسبانيا والبرتغال مثلا شاهد بعكس الحال عند غير المسلمين .

ويجب ألا يغيب عن بال الناس لحظة واحدة فى هذه المناسبة ، ما واجه به شيخ الإسلام السلطان سليماً العثمانى من الإنكار على ما كان يريد السلطان أن ينفذه ، من حمل غير المسلمين فى دولته على اعتناق الإسلام بالقوة ؛ وما زال الشيخ يعارض السلطان حتى رجع عن عزمه .

وكيف يسمح شيخ الإسلام فى أى عهد بمثل هذا الفعل الجائر المخالف لقول القرآن : (لا إكراهَ فى الدين قد تبيَّن الرُّشْد من الغَىّ) وقوله : (ما على الرسول إلا البلاغُ) ، (فَذكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عليهم بِمُسَيْطِرٍ) ، (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ الناس حتى يكونُوا مؤْمنين!) ، (ولو شاء الله لجمعهم على الهُدَى ، فلا تَكُونَنَّ من الجاهلين !) .

وبهذا الفهم لسعة باب الله وبساطة مراسم الدخول منه وسماحة رحابه واحترام حرية العقيدة فى ظلاله وعدم إكراه أحد على الدخول منه، يقف الإسلام متفرداً فى جميع العصور .